مقدمة

«حينما ظهر النوع البشري فإنه لم يكن يعرف الخبز ولا الملابس. وكان الإنسان يسير على قدميه ويديه ويأكل الأعشاب بفمه، كما يفعل الحيوان، ويشرب من ماء الأنهار...».

«نص سومري قديم»

هذا الاهتمام بالإنسان، بنشأته وتطوره، كما توضحها أفكار الشرق القديم لا تمثل بدايات هذا الفكر، بل لعل الإنسان بدأ يتعجب من نفسه منذ أن ظهر على الأرض وبدأ يشق طريقه للسيطرة على الأرض وسيادتها. وقصة الإنسان الذي وجد آثار أقدام أراد أن يتتبعها ليعرف صاحبها وانتهى به الأمر إلى أن يدرك أنها آثار أقدامه هو، هي في الواقع رمز لمدى ما يجهله الإنسان عن نفسه، ورغبته المتأصلة في استكشاف المجهول بالتقصي والمغامرة والبحث والدراسة.

والإنسان هو أكثر الكائنات الحية على كوكبنا الأرضي غموضاً، لتفرده الفكري بين جميع الكائنات التي تدب على سطح الأرض أو تسبح في مسطحات الماء. وهو برغم ذلك أَحْدَثُ من ظهر إلى الوجود الأرضي. فعمر الأرض يتراوح بين أربعة وستة مليارات سنة. والديدان عمرت التربة منذ 450 مليون سنة، وظهرت الأسماك غير ذات الفك منذ 400 مليون سنة، وعمر العقرب 350 مليوناً، والأسماك ذات الهيكل العظمي 300 مليون سنة، والزواحف 250 مليوناً، والحشرات الطائرة 255 مليوناً، والطيور 140 مليوناً، والحيوانات ذات الأكياس 80 مليون سنة.

أما الإنسان بمقدماته وأشباهه فلا يتجاوز عمره حدود المليون من السنين إلا قليلاً، بينما ظهر أجداد سلالاتنا المعاصرة (الإنسان العاقل) قبل قرابة 40 ألف سنة فقط.

لقد ظهر الإنسان بعد أن انقرضت أنواع من الحياة عاشت ملايين السنين

(كالديناصورات)، ومع ذلك لم يكتب لنوع من الحياة أن يسود ويسيطر على أجزاء العالم مثل الإنسان. ولم يغيِّر كائن مورفولوجية الطبيعة وأشكال الحياة النباتية والحيوانية مثلما فعل الإنسان، وهو بعدُ أعزل من جميع أسلحة القوة التي تتمتع بها أشكال الحياة الأخرى، لكنه تفوق عليها باستخدام قدراته العقلية مع احتفاظه بقوى الغرائز جميعاً.

لقد تحايل الإنسان على البقاء في كل بيئة طبيعية وتعايش مع كل أنواع الإيكولوجيات البيئية والنباتية والحيوانية وعاش عليها. ومع كثير من التضحيات وعلى مدى فترة زمنية طويلة انتصر الإنسان وبقي وتكاثر حتى ملأ ظهر الأرض.

لم ينتصر الإنسان لأنه الوحيد بين الكائنات الذي يقف على قدميه طوال حياته، ولم ينتصر لأنه الوحيد الذي يستخدم يديه في القبض على الأشياء والأدوات بإحكام تام، ولم ينتصر لأنه الكائن الذي يرى الأشياء مجسمة ببعدها الثالث، ولم ينتصر لأنه يستخدم قواه الذهنية. لم ينتصر لأنه الوحيد بين الكائنات الذي يملك كل هذه الميزات فقط، بل انتصر لأنه لا يوجد «إنسان فرد» بل «إنسان حضاري» يظهر من خلاله الإنسان الفرد في الظروف المواتية.

حقاً هناك كائنات كثيرة تؤلف حياة جماعية، لكن الغرائز البيولوجية وحدها هي التي تجمعها في تجمعاتها الهيراركية النمطية التي لا تحيد عنها طوال حياتها وإلا انتابها الهلاك. بينما التجمع الإنساني ليس نمطياً منذ الأزل وإلى الأبد، بل تتغير أنماطه وقوالبه استجابة للمواقف المختلفة، والفضل في ذلك راجع إلى الثقافة الإنسانية.

الثقافة أو الحضارة هي الوجه الآخر للإنسان: تشمل كل مقدرات الإنسان وأعماله، من الحصول على الغذاء إلى أدواته الإنتاجية، وكل منتجاته التنظيمية وأيديولوجياته وأفكاره الغيبية وإبداعه الفني.

لهذا لا يوجد مجتمع بشري من دون ثقافة أو حضارة مهما كانت درجة بدائيته. ولأن الإنسان الاجتماعي يتعلّم حضارته منذ نعومة أظفاره، أمكنه بواسطة هذه القدرة على التوارث الاجتماعي والحضاري أن يبني باستمرار فوق ما تلقاه من ميراث. وبذلك تنمو الثقافة وتنفتح آفاق جديدة أمام المغامرة الإنسانية المادية أو التكنولوجية أو المعنوية والفكرية.

ونحن اليوم نحتفظ في داخلنا الحضاري بتجارب المليون سنة الماضية: على سبيل المثال تجارب محاولة الوقوف المنتصب على القدمين، ونمر بها سراعاً ليصبح في إمكاننا الآن أن ننتقل بسرعة هائلة من مكان إلى آخر نتيجة تقدم تكنولوجية وسائل النقل. وفي الوقت نفسه نحتفظ بتجارب ومحاولات النطق باللغة دون أن نقف عندها، بل نمر عليها سراعاً لنتعلم أو نكتب روائع الأدب.

ويستعمل الإنسان الرموز، ولعل تطور الثقافة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمقدرة الإنسان على استخدام الرموز، ولاسيما تلك المتعلقة بلغة الكلام والكتابة، وأيضاً تلك المستعملة في الرسم والموسيقا والملبس وتزيين الجسم والإشارات (باليدين والوجه والرأس). والشيء المثير حول الرمز هو أنه يستعمل منحى من مناحي تجربة الفرد ليثير عواطف وأفعالاً ومعتقدات ووعياً بالنسبة لمناح أخرى. وهكذا يضفي الترميز على الأشياء والحوادث المعاني التي تزيد من مجرد الوعي الحسي لتلك الأشياء والحوادث، ويصل الترميز إلى أسمى تعبير له في اللغة الإنسانية.

إن الإنسان هو النوع الوحيد الذي يملك القدرة على أن يعكس الآمال والمخاوف والتخيلات الحالية إلى أعمال مستقبلية. وفوق كل هذا فإنه من المؤكد أن الإنسان هو الوحيد الذي يحاول اكتشاف هويته ومعرفة أي نوع من الحيوان هو!

وإذا كان الإنسان كائناً عضوياً فإن الحضارة هي الأخرى كائن عضوي تنبع من الواقع وتعيش عليه وتتغذى بالوراثة وتنمو بالتجربة الجديدة، وتستجيب لكل أنواع المؤثرات الداخلية النابعة من المجتمع، والخارجية القادمة من مجتمع حضاري آخر. ويترتب على ذلك أن تثري الحضارات أو تتفاعل وتذوب أو تتشكل في صورة جديدة أو ترفض التطعيم فتنعزل وتذبل ثم تموت مع مجتمعها.

ولأن الحضارة كائن عضوي يستجيب لكل المؤثرات، فإنها أخذت أشكالاً مختلفة عند المجتمعات المختلفة. لقد أدى تفاوت الظروف الخاصة لكل مجتمع - سواء كانت ظروفاً مكانية أو زمانية أو تاريخية - إلى تفاوت كبير في أنواع الحضارات وأشكالها: بعضها أخذ يتجمد لفترة طويلة، والبعض ينمو بسرعة لفترة ما، والبعض الآخر ينصهر ويذوب في حضارات متوسعة، أو يموت وينقرض. لقد أدى كل هذا إلى أن يغطي سطح الأرض المسكون لوحة من الفسيفساء الحضارية، تحاول الحضارة الصناعية أن تغزوها كلها وتسيطر عليها منذ بداية القرن العشرين.

وهذا الكتاب محاولة لمزيد من المعرفة عن الإنسان: بزوغ الإنسان من العالم الحيواني وتطوره كائناً متكلماً عاقلاً صانعاً للحضارة. وكذلك تفاعل الإنسان مع البيئة بأوسع معاني هذه العبارة وما تتضمنه من مظهر مادي حضاري.

يقول كروبر: «إن دراسة الإنسان هي الحد الوحيد للإناسة، فهي لا حد لها من حيث الزمان ولا من حيث المكان. إذ إن تقصيها يمتد ليشتمل على العالم بأسره. إن الإناسة تدرس الإنسان في الماضي والحاضر عبر جسده ومجتمعاته وتاريخه وإنتاجه وأساليب اتصاله ولغاته وثقافاته. إنها تسعى إلى تبيان العلاقات القائمة بين هذه النشاطات، فإذا كانت تتوصل إلى بلورة هذا التوليف فهي إنما تتوصل إلى ذلك عن طريق مقولة الثقافة».

obeikandl.com